هل الحب سعادة أم شقاء ؟

. فرقت الايام بين صديقين (للمعرفة) يمتان الى الفلسفة بصلة وثيقة ، فاستقر احدهما فى باريس والآخر في مصر ، ولكن بعد الشقة بينهما لم يمنع من تراسلهما بالكتب ، يبدان فيها ما تكنه جوانحهما ، واليك صورة مما دار بينهما من الرسائل فى هذا السبيل ... المحرر

١ — القاهرة فى ٢٠ — ١١ — ١٩٣١

أخى . . . م

. . . لقد أصبحت متبرما بالحياة لأنى لا أجد فيها العناية التى تشبع ونبات نفسى ، و إنى أجد العلم الذى حصلته ، المال الذى أكسبه ، الجاه الذى أتمتع به ، كل ذلك عبث لا يوصل إلى سعادة ، ولا يجعل الانسان يحس الحياة إحساساً و يختلط بها وتختلط به ، وقد أعملت فكرى فيما يوصلنى إلى السعادة ، وقلبت نظرى فى مسالك الناس وقصص السالفين ، حتى أعثر على المفتاح الذى يلج باب الحياة فيفتحها أمامى ، فرجعت بعد البحث والتمحيص ، والاستقراء والنظر ، إلى أن الحياة هى الحب وأن الحب هو الحياة ، وأن أبواب الحياة ونوافذها هى الحب ، من يجهله فقد ضل سبيل الحياة وعاش إلى الحيوان الأعجم أقرب منه إلى الانسان ذى الوجدان أو كما يقول (ديكارت) يصبح كالحيوانات الآلية « Les bêtes machines » إذا صح لى أن أستعير جملته المشهورة . فلما تبين لى ذلك انتقلت الفكرة إلى عقيدة ، واستحالت العقيدة إلى رغبة لا ينقصها إلا التنفيذ ، فالرغبة متغلغلة ، والعزيمة متحفزة ، ونفسى مهيأة لقبول أى حب طارىء ، يعينى على ولوج باب الحياة .

إنى أحس يا صديقى أنى مقبل على حب وشيك ، وسأزف لك بشراه حين يتم ، ولن يكون ذلك بعيداً . . . ؟ ف . . .

٢ — باريس فى ٢٨ — ١١ — ١٩٣١

أخى ف . . .

. . . سرنى كتابك بمقدار ما كنت أسر من حديثك ، وشاطرتك فى غبطتك بنشاطك ، و إذا كنت تتألم اليوم من أشياء ، فاعلم أن هذا الألم لا ضرر فيه ، لأنك تعرف السبيل إلى ملافاته ، بل إنى أرى من خلال خطابك أن هذا الألم يدفعك إلى تحقيق رغبات طيبة سامية ، و إذن فعش قليلا فى ظلال الألم ، ولكن لا تحسب أن هذه الظلال من الكثافة بحيث تمنع عنك النور .

تصرف فى الألم ، ولا تدعه يضعف عزيمتك ، أو يقعدك عن الوثوب إلى حيث تريد همتك . وإذا كنت تبحث عن « حب » فتأن كثيراً ، لأن الحب فناء ، والفناء الانساني إما أن يكون نهاية السعادة ، أو نهاية الشقاء ، وهو قد يعبر عن إدراك غاية الكمال ، أو يعبر عن نقيض هذا ، والحب كفناء يسوق الانسان كالقضاء الذى لا يقاوم . وإذن فلا تعجل بالحب ، وحافظ ما استطعت على حريتك واستقلالك ... ؟ م . . .

٣ — القاهرة فى ١٠ — ١٢ — ١٩٣١

أخى م . . .

. . . وصلنى كتابك الأخير ، فسرنى منه طلاوة الاسلوب ، وصفاء الروح ، أما صفاء الروح فهذا عهدى فيك دائما ، وأما طلاوة الاسلوب فلأنك تليس فكرك لباساً من الفلسفة يغريني على قبوله لأول وهلة ، لا سيما إغراؤك لى أن أصدف عن الحب ولا أنزلق اليه . وقد صدم استدلالك مشاعرى ، ووجدته نابياً عن دفين وجدانى ، فلم يسعنى إلا أن أرد عليك بمثال ما كتبت إلى .

لقد بدأت بقضية عامة هى « أن الحب فناء » ثم رتبت عليها بعد ذلك كل قياس ، ولأسلم معك بهذا ، أى أن الحب فناء ، فيكون أحد أمرين : إما أن الانسان قبل الحب هو غير فان فى شىء من الاشياء ، وإما فان فى شىء . وعندى أن الانسان لابد فان فى شىء من الاشياء ، فى غاية يسعى اليها ، لأن كل إنسان يسعى إلى غاية ، وهذا هو ما يفرق بين الكائن الحي والجماد : فالاول غائى Finaliste ، والثاني غير ذلك . والفارق بين الانسان والحيوان هو أن الحيوان قد ركبت فيه الغاية بالغريزة ، فهو يسعى اليها دون أن يبصرها ، بينما الانسان يتميز بالعقل والحرية ، فالعقل ينير له سبل الغايات ، ثم له بعد ذلك الحرية فى السعى اليها ، والفناء فيها .

وإنى لا أنشد الحب غاية فى ذاته أفنى فيه ، ولكني أنشد غاية أخرى أسمى وأرفع ، هى الجمال ، لأن الجمال هو انسجام الاشياء وتوافقها وهو غاية الغايات ، والمثل الأعلى البعيد ، ولذا كان صفة من صفات الله جل تعالى ، لأن الجمال كمال Perfection . ثم إنى لن أستطيع أن أصل إلى هذه الغاية إلا إذا تحققت فى صورة مادية ، فى واسطة من الفن ، أو الادب ، أو الحب ، أو غير ذلك مما لا أزيدك به علماً . وعندى أن المرأة هى أفضل وسيلة تتحقق فيها غايتى من الحياة ، الوسيلة التى أنفذ منها إلى الحياة فأحس بها أعمق الاحساس ، هى الباب الذى يلج منه الانسان إلى نعيم الحياة بما فيها من جمال وسعادة ولذة .

فأنا لن أفنى فى الحب لأنه وسيلة وليس غاية ، ولا تخش على من انتقال تلك العاطفة ، فانك تعلم من صلب إرادتى ، وامتلاكى لنفسى ، ما يجعلنى أدفع الحب لنفعى ، وشحذ عزيمتى ، دون أن أتركه يشكلنى ويوردنى موارد الحتف والهلاك .... ؟ ف . . .